

تاريخ القبول: 2019/07/23

تاريخ الإرسال: 2019/07/10

مرتكزات بنيوية لوسيان غولدمان التكوينية

Lucian goldman's formal structuralism foundations

ط. د عادل اسعيدي المركز الجامعي تامنغست (الجزائر)

saidi05tam@yahoo.com

د. عبد القادر بختي المركز الجامعي تامنغست (الجزائر)

bakhtiabdlkader11@gmail.com

مَلِكُ الْجَمَلِ

ركز رواد البنيوية في بداياتها على داخل النص محاولين إدراك كيفية تحقق الترابط بين البنيات اللغوية، متجاهلين علل وجود العمل الأدبي وأسباب اختيار مبدعه لقوانين اللغة وتركيبها الداخلي، والتي حرمتهم من معرفة الدلالة المركزية للنص الإبداعي؛ فقدمت البنيوية التكوينية الغولدمانية نفسها بديلا عن البنيوية الشكلية، لا يكتفي بالبحث عن الترابطات اللغوية في العمل الإبداعي، وإنما يتجاوزها إلى كشف رؤية المبدع وطبقته من خلال العالم الخارجي والسياق الثقافي.

ستحاول الدراسة معتمدة على الوصف والتحليل والمقارنة الإجابة عن السؤالين الآتين: كيف نشأت البنيوية التكوينية؟ وما أهم أسسها عند لوسيان غولدمان؟
الكلمات المفاتيح: بنيوية تكوينية، غولدمان، رؤيا العالم، بنية دالة، وعي، تماثل.

Abstract:

The pioneers of structuralism , focused in their early begin on the inside of the text trying to know how linguistic interrelationship , were atached together , and they ignored the existence of the literary work , and the reasons in which the writer of it , had choiced it's intern construction .This procedures , prevented them from knowing the central meaning of the creative text .

The structural structure , present itself as an alternative of formal structuralism , and want to reveal the creator's vision , and applied it through the outside world , and the cultural

contaxt .In this study , we depend on descriptive , analysis , and comparison , to answer on these questions : how did the formal structuralism established ? and what is it's most important foundations for Lucian goldman.
Keywords: structuralism, Lucian Goldman, world vision, structure of composition, consciousness, symmetry



توطئة:

سعت المناهج النقدية باتجاهاتها المختلفة قبل البنيوية إلى استبعاد النص الإبداعي من مجالات دراستها مكتفية بجعله وثيقة تخدم أهدافها التاريخية والاجتماعية والنفسية وغيرها من الأهداف، ثم حرص نقاد البنيوية في بحوثهم على فض مغاليق الأعمال الأدبية، وتتبع لعبة الدلالات من خلال كشف قوانينها وأنساقها الداخلية، محاولين تفريق لغتها الأدبية عن اللغة العادية، مؤكدين مبدأ انغلاق النص على نفسه ووجوده بذاته، متزودين بالإجراءات الوصفية والوضعية.

واقترنت جهود رواد البنيوية في بداياتها على الاتجاه صوب داخل النص لإدراك كيفية تحقق الترابط بين البنيات اللغوية، متجاهلين علل وجود العمل الأدبي ومعرفة محركه الأول، وأسباب اختياره لقوانين اللغة وتركيبها الداخلي، ولأن إمكانية القبض على الدلالة المركزية للنص الإبداعي ظلت غائبة مع البنيوية الشكلية - تحديداً- قدمت البنيوية التكوينية الغولدمانية نفسها بديلاً عنها يوسع ضيق أفقها ومحدودية تحليلها اللغوي، ويتجاوز البحث عن الترابطات اللغوية إلى كشف رؤية المبدع وطبقته من خلال العالم الخارجي والسياق الثقافي، الذي نشأت وترعرعت فيه النصوص الأدبية التي تبقى أساس الدراسة والمقصود منها.

مفهوم البنيوية التكوينية:

إن مفهوم البنية ومفهوم التكوين هما الأساس الذي تقوم عليه البنيوية التكوينية، حيث تدرس المرحلة الأولى وتقومها وتفسر المرحلة الثانية ربط العمل الفني بالبنى الفكرية الموجودة خارجه، وتدرك وظيفته ضمن الحياة الثقافية في الوسط الاجتماعي، وهذا المنهج لا ينبغي تدخل اللاوعي في العملية الإبداعية، ولذلك فإن البنيوية التكوينية إذ

تمد جسرا بين علم الاجتماع والبنوية عندما تقول بضرورة تحليل بنية العمل الروائي الداخلية، فإنها تمد جسرا آخر بين علم الاجتماع وعلم النفس عندما لا تنفي تدخل عامل اللاوعي الفردي في بناء العالم الروائي والإبداعي، وإن أولى الإثباتات العامة التي يستند إليها الفكر البنوي هي القائلة بأن كل تفكير في العلوم الإنسانية إنما يتم من داخل المجتمع لا من خارجه، وبأنه جزء من الحياة الفكرية لهذا المجتمع، وبذلك فهو جزء من الحياة الاجتماعية.

وقد تُرجم اسم هذا المنهج النقدي الذي أطلق عليه لوسيان غولدمان بـ (Structuralisme génétique) بعدة تسميات عند العرب حيث ترجموه إلى: البنوية التكوينية والبنوية التركيبية، والبنوية التوليدية، التي اعتمدها جابر عصفور حين أقر "أن مبدأ التولد مبدأ أساسي حاسم في منهج غولدمان كله، الأمر الذي جعلني أؤثر ترجمة (البنوية التوليدية) على الاجتهادات المقابلة في الترجمة من مثل ترجمة الهيكلية الحركية والبنوية التكوينية والبنوية التركيبية"¹، ورغم الاختلافات في تسمية هذا المنهج النقدي عند العرب، إلا أن مصطلح البنوية التكوينية هو الذي شاع استعماله عند النقاد العرب.

نشأة البنوية التكوينية:

اقتصرت البنوية الشكلية على تحليل النص وحده دون الرجوع إلى مراجعة النفسية لدى المبدع أو ظروفه الاجتماعية، فألغت الفرادة والخصوصية الفنية للنص الواحد، وقضت على المبدع وتميزه، وهذا ما ركز عليه المفكر الفرنسي روجي غارودي في كتابه (فلسفة موت الإنسان)، فوجدت البنوية نفسها أمام باب مسدود بسبب هذه الانغلاقية، فجاءت البنوية التكوينية لتعيد قيمة المبدع، حيث جمعت بين البعد الاجتماعي للنص الأدبي والبعد اللغوي.

نشأت البنوية التكوينية في أحضان الفكر الماركسي في ظل جهود المفكرين والنقاد الماركسيين، للتوفيق بين أطروحات الشكليين ومبادئ الفكر الماركسي الجدلي الذي ركز على التفسير المادي والواقعي للفكر والثقافة عموما، حيث أنها "تسمح بنوع من العلاقة بين البنوية الفوقية - الثقافة والأدب والفنون - والبنية التحتية كالاقتصاد

والمجتمع وما شاكل ذلك²؛ وهذا المنهج يرتبط بالأعمال والتصرفات الإنسانية، ويتميز بدمج البنيوية بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والذي تعتمد بالدرجة الأولى على الجماعة الإنسانية حيث أن "الفاعل الحقيقي للإبداع الثقافي هم الجماعات الاجتماعية وليس الأفراد المنعزلين"³، وقد ارتبطت البنيوية التكوينية باسم (لوسيان غولدمان)، الذي يعبر على تسميتها بالمدرسة بهدف "تأسيس منهجية نظرية خاصة به، تشرح العمل الأدبي في علاقته الداخلية، وتدرج بنيته الدلالية في بنية اجتماعية أكثر شمولاً واتساعاً"⁴.

ويعد لوسيان غولدمان من تلامذة الفيلسوف المجري جورج لوكاتش الذي سيطر على مجمل سوسيولوجيا الأدب في القرن العشرين. وقد كان لكتابه النقدي الهام (نظرية الرواية) الأثر الهام في البنيوية التكوينية، حيث يربط بين التطور الاجتماعي والتطور الأدبي في مضامينه وأشكاله، ويعكس العلاقة بين الوعي والعالم، وبين الذات والموضوع في المجتمع الحديث البرجوازي في سياق اجتماعي، ليشكل بذلك "نقطة انعطاف في علم الاجتماع الأدبي"⁵، إذ هاجم لوكاتش المناهج الشكلية لاهتمامها "بالمعيار المنهجي وبقضايا الأسلوب الأدبي وبراعته الفنية (التكنيك)"⁶.

أرسى لوسيان غولدمان أسس البنيوية التكوينية حين قدم الفرضية التي أصبحت أساس منهجه، وهي أن الأدب والفلسفة تعبيران عن (رؤية العالم)، وإن رؤية العالم ليست وقائع فردية بل هي اجتماعية، "إذ أنها ليست وجهة نظر الفرد المتغير باستمرار بل هي وجهة نظر ومنظومة فكر مجموعة بشرية تعيش في ظروف اقتصادية واجتماعية متماثلة، وتعبير الكاتب عن هذه المنظومة له دلالة كبيرة فهو يستمد منها"⁷.

ويعد كتابه (الإله الخفي) من الدراسات المهمة التي قدمها غولدمان في محاولة الكشف عن مضامين أعمال باسكال ومسرح "الجانسينية"* لدى راسين (على ضوء التحليل المادي الجدلي)⁸، وقد أخرج بها البنيوية الشكلية من انغلاقها على النص المنقود وحده، ووسع أفق المنهج الاجتماعي ليتجاوز حدود إيديولوجيته التي كانت لا تقيم الأدب إلا وجهة نظرها، ويتجسد ذلك واضحاً في مناقشة غولدمان لمسألة

علاقة المؤلف بإبداعه انطلاقاً من رؤيته أن النص الأدبي اجترار للوعي الاجتماعي؛ إذ "لا يرى في المؤلف أكثر من مجرد عامل مساعد تمد من خلاله عملية الخلق الأدبي"⁹.

لا يدعو لوسيان غولدمان إلى فكرة (موت المؤلف)، ولا يبالغ في تقدير أهميته، فهو يصرح أنه "لا يمكن لعمل مهم أن يكون تعبيراً عن تجربة فردية خالصة"¹⁰، ويرفض نظرية هيوليت تين التي تفسر "العمل الأدبي بواسطة سيرة الكاتب والبيئة الاجتماعية التي عاش فيها"¹¹، ويحذر من خطورة المبالغة في تقدير أهمية السيرة الذاتية، متطرقاً إلى ما أثاره لوكاتش حول إمكانية حدوث تناقض بين ما يقوله المبدع في عمله الإبداعي وبين إيديولوجيته، و"قد طور غولدمان مقولة لوكاتش بعرضه لظاهرة التناقض بين الأثر الأدبي وصاحبه، وضرب لذلك مثلاً ببلزاك الذي كان رجعيًا في آرائه وتحزب للملكية، ولكن رواياته تتال من البرجوازيين"¹².

وبهذا تكون البنيوية التكوينية قد نشأت في ظل الفكر الماركسي الهيجلي من مناهج ما بعد البنيوية، جاءت لتسد ثغرات البنيوية، وتجمع ما بين البعد الاجتماعي للنص الأدبي والبعد اللغوي، حيث أعادت للمبدع إعتباره فكانت منهجاً علمياً موضوعياً، يؤكد على العلاقات القائمة بين النتائج والمجموعة الاجتماعية التي ولد النتائج في أحضانها، وهذه العلاقات لا تتعلق بمضمون الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي، وإنما بالبنى الذهنية Structures mentales التي هي ظواهر اجتماعية لا فردية، كما أنها رفضت الآراء الفردية ونظرية هيوليت تين محدرة من خطورة المبالغة في تقدير أهمية السيرة الذاتية، و ارتكزت على أربعة مبادئ أو مرتكزات أساسية تعتمد عليها في تحليلها للنصوص الأدبية.

مرتكزات البنيوية التكوينية:

حدّد لوسيان غولدمان نوعية العلاقة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي، فهي علاقة جوهرية تقوم على أساس التماثل الموجود بين النص الأدبي وعلاقته بالبنى الذهنية لطبقة أو فئة اجتماعية، فالبنى الذهنية ليست ظواهر فردية "بل ظواهر اجتماعية، وهي لا تتعلق بالمستوى المفهومي أو بالمضمون أو النوايا الشعورية، ولا

تتعلق بإيديولوجيا المبدع، بل تتعلق بما يرى، بما يحس¹³، وقد يكون التناظر بين البنية الذهنية للمجموع والمبدع تناظرا نسبيا، وليس مطلقا وصارما، فالبنىات الذهنية التي أسست النتاج هي بنيات فردية بصورة خاصة، وقد أراد غولدمان تحقيق رؤية العالم في حديثه عن البنيات الذهنية، وهذا "لا ينفي بتاتا أن هاته تتحقق بواسطة من خلال فرد معين"¹⁴.

وبغية التأكد من هذه النقطة وضح غولدمان الفرق الجوهرى بين السوسولوجية البنوية التي طرحها وسوسولوجية المضامين والأشكال، فحين "ترى سوسولوجية المضامين في النتاج مجرد انعكاس للوعي الجماعي، فإن السوسولوجية البنوية ترى في النتاج أحد العناصر المكونة وذات الأهمية القصوى للوعي الجماعي، العنصر الذي يسمح لأعضاء المجموعة بامتلاك معرفة بما يفكرون فيه، بما يحسون، أو بما يعملون دون أن يعوا الدلالة الموضوعية لأفعالهم"¹⁵، وإذا كانت سوسولوجيا المضامين في الأدب انعكاسا للواقع، والبنوية الشكلية ترفض تفسير الواقع وتعزله، فإن "البنوية التكوينية تستهدف مبدئيا الغوص أقصى ما يمكن في المعنى التاريخي والفردى معتبرة أن ذلك هو جوهر المنهج الإيجابي وجوهر دراسة التاريخ"¹⁶.

ومن هذا المنطلق نجد أن البنوية التكوينية تعيد الاعتبار للظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية للمبدع، بحيث أنها لا تعزل النص عن بيئته، ولا تغيب الخصوصية الأدبية للمبدع وأدبه رغم اهتمامها بالسياقات الخارجية، وبهذا استطاعت "تحقيق وحدة بين الشكل والمضمون، بين حكم القيمة وحكم الواقع، بين التفسير والفهم، بين الغائية والحتمية"¹⁷، ودراسة البنية داخل حدودها الزمانية والمكانية وفي وضعها التاريخي والاجتماعي، وقد اتكأت البنوية التكوينية أو التوليدية عند لوسيان غولدمان على خمسة معالم رئيسة في مقاربتها للنصوص الأدبية ندرجها على النحو التالي:

1- رؤية العالم

يعد مفهوم (رؤية العالم) من المرتكزات الأساسية التي تبنى عليها البنوية التكوينية كما صاغها غولدمان، وهذا المفهوم استعمله كثير من المفكرين السابقين له، فمن

الناحية التاريخية نجد أن ديلكي "أول من استعمل مفهوم رؤية العالم، وقد أوضحه في كتابه (مدخل لدراسة العلوم الإنسانية حول الأساس الذي يمكن أن تقيم عليه دراسة المجتمع والتاريخ)، وخصه في مرحلة تالية بمؤلف هو (نظرية النظرات إلى العالم حول فلسفة الفلسفة)¹⁸؛ حيث يؤكد أن رؤية العالم "هو مفهوم إجرائي بل مكون فعال لما يعانیه الفرد ويعيشه، وبناء على ذلك فهو يبدو من اختصاص علم النفس، فإن كل كائن يرد على ما يتولد عن موقفه في المجتمع من مشاكل بواسطة نموذج يبنیه بشكل تدريجي، وحينئذ لا يبدو التحديد المجتمعي إلاّ عاملاً ثانوياً يضيفي صيغة الوحدة على تنوع النظرات كما هي عند الأفراد"¹⁹.

ويرى ماكس فيبر أن مفهوم رؤية العالم هو النموذج الذهني الذي يشترك مع النظرة إلى العالم في نقاط متعددة، هو "نموذج نواجهه بالواقع كي نقيس مدى ابتعاده عنه، ونقيمه انطلاقاً من بعض العناصر التي نستقيها من الواقع، ولكي ننقيها بدلالة السؤال الذي يطرحه الباحث"²⁰، ورغم هذا التعدد في مفهوم رؤية العالم من طرف مستعمليه من الدارسين إلاّ أنّ هناك قاسماً مشتركاً بينهم وهو مفهوم الكلية، كما تحددت في مرجعها الهيجلي، وقد لجأ غولدمان نفسه إلى هذا المفهوم، غير أن لوكاتش وغولدمان لا ينحصر استعمالهما لها في دقته، بل في "كونهما وسعا دائرة هذا الاستعمال الدقيق ليشمل بذلك زمرة من العلوم الإنسانية البعيدة عن الأدب كالفلسفة وعلم النفس والتاريخ وغيرها من العلوم"²¹.

وقد اتسم مفهومهما لرؤية العالم بالغموض، إلاّ أن جورج لوكاتش كان إيجابياً في استخدامه له إذ استعمله بكيفية دقيقة وفي مجال النقد الأدبي، ويؤكد هذا ما ذهب إليه لوسيان غولدمان حيث أشار إلى أن "المفهوم ليس من أصل جذلي واستعمله ديلكي ومدرسته بكثرة، لكن بشكل غامض فح دون أن ينجحوا في إعطائه وضعاً إيجابياً صارماً، وإنّ الفضل في استعماله بالدقة اللازمة لتصبح أداة عمل يرجع بالدرجة الأولى إلى جورج لوكاتش"²².

ويعرف لوسيان غولدمان رؤية العالم بقوله: "إن الرؤية للعالم هي بالتحديد هذه المجموعة من التطلعات والإحساسات والأفكار التي توحد أعضاء مجموعة اجتماعية

وفي الغالب أعضاء طبقة اجتماعية، وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى، إنها بلا شك خطاظة تعميمية للمؤرخ ولكنها تعميمية لتيار حقيقي لدى أعضاء مجموعة يحققون جميعا هذا الوعي بطريقة واعية منسجمة إلى حد ما²³، ويعني هذا أنها رؤية جماعية لا فردية، بحيث تكون "منظومة لفكر مجموعة من البشر الذين يعيشون في ظروف اقتصادية واجتماعية متماثلة"²⁴.

ويؤكد غولدمان أن رؤية العالم ليست واقعة فردية، ويعلل ذلك بكون الفرد المبدع لا يخلق بنية فكرية منسجمة من تلقاء نفسه، وإنما يبلورها بشكل واضح، ويرتقي بتلك البنية إلى درجة عالية من الانسجام، حتى ترقى إلى مستوى الإبداع الخيالي، ومن خلال الواقعة الاجتماعية التي تنتمي إلى مجموعة وإلى طبقة معينة يعبر المبدع عن أفكار ومشاعر هذه الجماعة، وهذا التعبير لا يتسنى للأفراد العاديين، وإنما كبار الأدباء والمنظرين هم الذين يستطيعون فعل ذلك، ولكن ليس كل ما يعبر عنه المبدع ناتجا عن نواياه ومعتقداته، فقد تتحقق "الدلالة الموضوعية التي اكتسبها الناتج بمعزل عن رغبة مبدعه وأحيانا ضد رغبته"²⁵.

لقد طبق لوسيان غولدمان هذا المفهوم النظري في دراساته لأعمال باسكال ومسرح الجانسييه لراسين، حيث يؤكد غولدمان كباقي النيوبيين "على أهمية اللغة، ويرى أن الرؤية للعالم هي رؤية ماثلة في النص كلغة، إنها النواة فيه تتجلى فيما يحكم بنيته من قوانين، وتبرز منطقاً تتبين به عناصر النص"²⁶، وللكشف عن هيكله النص والوصول إلى جوهر الرؤية التي تتسم بالشمولية والانسجام وجب التركيز على تحليل لغة النصوص، التي تحوي ماضي النص "وحاضره ومستقبله، فلا يهمننا ما يعكسه النص الأدبي عن صاحبه بقدر ما يهمننا ما يعكسه النص من خلال تفسير تلك الرؤية وكشفها عن المجتمع، وعن صراع طبقاته وتحولاته وعن التغيير الاجتماعي، وذلك ما يجعل النص متمسا بالعبرية والتقدمية"²⁷.

و يظهر مما سبق أن رؤية العالم عند غولدمان تتميز بميزتان هما: الشمولية والانسجام أو التماسك، وقد أعطى جمال شحيد مثالا على مبدأ الشمولية والكلية بالعلاقة الوطيدة بين التفاحة والشجرة، "فدراسة التفاحة بحد ذاتها مهمة، ولكنها

تصبح أهم وأشمل إن لم تتفصل عن الشجرة والمحيط الذي عاشت فيه²⁸، فلا يمكن فهم الجزء إلا في إطار الكل، ويعرف غولدمان الشمولية بمثال استوحاه من دراسته لخواطر باسكال حيث قال: "إذا أردت أن أشرح خاطرة لباسكال وجب علينا الرجوع إلى جميع خواطره وفهمها، ولكن ينبغي أن أشرح نشأتها، وعندها أضطر على الرجوع إلى الحركة الجانسينية"²⁹.

كما أن للتماسك والانسجام أهمية بالغة في مفهوم رؤية العالم عند لوسيان غولدمان، وهذا ما أكده روجي غارودي حيث قال: "إن البنية الداخلية للأعمال الفلسفية أو الأدبية أو الفنية العظمى صادرة عن كون هاته الأعمال تعبر في مستوى يتمتع بانسجام كبير عن مواقف كلية يتخذها الإنسان أمام المشاكل الأساسية التي تطرحها العلاقات فيما بين البشر والعلاقات بين هؤلاء وبين الطبيعة"³⁰، وقد أكد غولدمان أن رؤية العالم هي وجهة نظر متماسكة وموحدة، وهذا التماسك والانسجام يجعل رؤية العالم لا تتجاوز حدود الوعي الجمعي؛ ومن كل هذا يجلى لنا أن مفهوم رؤية العالم بدأت كالضوء الخافت عند لوكاتش وديلكي وكارل مانهايم وماكس فايرر، ليزداد إشعاعا ونورا عند لوسيان غولدمان الذي حدد مفهومه بدقة وأرسى قواعده.

الفهم والتفسير

يقوم مبدأ الفهم والتفسير على التكامل بين داخل النص الإبداعي والواقع الاجتماعي التاريخي، ويعتمد هذا المبدأ على إنشاء بنيات دالة تنتمي إليها المجموعة أو الطبقة التي يمثلها هذا السلوك في صورته، فيغدو هذا النتاج أو الأثر ذا دلالة حقيقية تنبع من اندماجه في النسق العام الدال على بنية الواقع الذي يحكمه، ويصوره في ظل مقولات فكرية وقيم؛ ويتجلى هذا الاندماج من خلال مبدأ الفهم والتفسير للعمل الإبداعي، فهما عمليتان تهدفان إلى وضع النص ضمن إطار من الدراسة.

يهتم الفهم بتتبع بنية النص ودراسته دراسة محايدة، بينما يهتم التفسير بوضع هذه البنية ضمن البنية الشاملة للمجتمع، فإذا "كان الفهم هو الكشف عن بنية دالة محايدة في الموضوع المدروس [...]"، فإن الشرح إدماج هذه البنية في بنية شاملة، تغدو البنية الأدبية عنصرا تكوينيا من عناصرها³¹؛ ويرتكز الفهم عند المحلل على البنى

الداخلية، وهو عملية سابقة للتفسير يبحث في الجوانب الخارجية، في حين ينظر التفسير إلى العمل من منطلق الإبانة عن تولد هذه البنية الأدبية، حيث إنها "وظيفة لبنية اجتماعية أوسع منها"³²، يعني أنها تعمل على ربطه ببنية أوسع وأشمل. ولا يطغى الفهم على البنية الداخلية للنصوص، كما لا يقتصر التفسير على ما هو خارجي عنها، إذ "ينبغي أن نظل محتفظين في أذهاننا بواقع أن الفهم ليس وحده المحايث دائما في النصوص المدرسية، في حين يظل التفسير خارجا عنها، بل إن كل ربط من النص بالواقع الموجود الخارجي سواء تعلق الأمر بفئة اجتماعية أم بنفسية الكاتب"³³، وتقتصر مهمة الفهم على إضاءة البنية الفنية التي تنهيكل ضمنها البنية الدالة المحايثة للأثر الإبداعي، والامتناع عن إضافة عناصر أو دلالات أدبية؛ وتظهر بذلك وظيفة عملية التفسير في جعل هذه البنية الدلالية موصولة إلى بنية أسفل بإدخالها في بنية أوسع تكون جزءا منها، أي "إنارة النص بعناصر خارجة عليه بغية الوصول إلى إدراك مقوماته"³⁴، فهي تقيم علاقة بين العمل الأدبي والواقع الاجتماعي الخارجي.

ومن هنا يتجلى لنا أن مقولة الفهم والتفسير جعلت البنيوية التكوينية تضفي صفة التكوين للنص الإبداعي في وظيفته اتجاه الجماعة، رافضة بذلك صفة الانعكاس التي يفضل عليها لوسيان غولدمان تعبير الوظيفة في مقارنة النص، حين يؤكد أن "وظيفته هي التي تصنع بنيته، وتكسبه دلالاته التي لا تفهم خارج إطار هذه البنية الأشمل"³⁵، فالفهم عند غولدمان هو التركيز على النص ككل دون إضافة أي شيء من تأويلنا أو شرحنا، والتفسير هو الذي يسمح بفهم البنية بطريقة أكثر انسجاما مع مجموعة النصوص المدروسة، ويستلزم التفسير من وجهة نظره استحضار العوامل الخارجية لإضاءة البنية الدالة.

البنية الدالة

تعد مقولة البنية الدالة من أهم مبادئ لوسيان غولدمان، وقد استقاها من أستاذه جورج لوكانتش حيث "يشكل كتابه (تاريخ الوعي الطبقي) بداية حقيقية وقوية لأحداث القطيعة مع مفهوم الانعكاس في الأدب، فقد ركز غولدمان على بنية النص دون

المضمون الاجتماعي، وهذا لا يعني أنه أقصى هذا الأخير، إنّما دلالة البنيات يجب أن تحمل مضمونا اجتماعيا تفجره بنية النص [...]. وكلما استطاعت هذه البنيات التعبير عن هذه المضامين الاجتماعية، وصفت بأنها دالة³⁶.

ويحدد لوسيان غولدمان مفهوم البنية الدالة في كتابه (أبحاث جدلية) بقوله: "إن مقولة البنى الدالية تدلّ معا على الواقع والقاعدة، لأنها تتحدّد في أن المحرك الحقيقي (الواقع) والهدف الذي تصبو إليه هذه الشمولية التي هي المجتمع الإنساني، هذه الشمولية التي يشترك فيها مع العمل الذي يجب دراسته، والباحث الذي يقوم بهذه الدراسة"³⁷، وبهذا نجد أن غولدمان قد وضع إطار الشمولية قاسما مشتركا يجمع بين العمل المدروس والباحث، فالبنية لا تكون دالة إلا إذا كانت شاملة.

ومن خلال هذا المفهوم يتضح لنا كذلك أنّ الناقد لا يمكنه عزل جزء من النص ودراسته بمعزل عن سياقه ومجمله، "فكل حقيقة جزئية لا تكتسي دلالتها الحقيقية إلا بمكانتها داخل المجموعة، كذلك لا تستوضح المجموعة إلا بالتّقدم في معرفة الحقائق الجزئية، وهكذا تبدو سيرة المعرفة ترجع دائما بين الأجزاء والكل التي يوضح بعضها بعضا"³⁸، كما أن البنية الدالة عند غولدمان تهتم بتحقيق فهم كلي في إطار جمالية التماسك، إقتداءً بأستاذه لوكاتش الذي دعا إلى تماسك النص، فالبنية الدالة لدى غولدمان تشكل "الأداة الرئيسية للبحث في أغلب الوقائع الماضية والحاضرة"³⁹، فمفهوم البنية الدالية يفترض أنّها رؤية دينامية تتابع تشكل البنيات، وبهذا يكون العمل الفني موحدًا و متماسكًا.

الوعي القائم والوعي الممكن:

إنّ مفهوم الوعي القائم والوعي الممكن نجده مشتركا بين لوكاتش وغولدمان، غير أنّ الناقد الثاني يقر بصعوبة تدقيق معناه في قوله: "موضوعة الوعي هي بالذات من بين الكلمات الأساسية المستعصية على التّحديد الدقيق"⁴⁰، وترجع هذه الصعوبة للطابع الانعكاسي الموجود في تأكيدنا على الوعي، ليكون الذات والموضوع في الخطاب، إلا أن غولدمان اقترح تعريفا يملك ازدواجية في توضيح الصلة القائمة بين الوعي والحياة الاجتماعية، ويبين في الوقت نفسه بعض المعضلات المنهجية.

ويستشف من تعريفه هذا أن التدقيق للوعي هو واقعة أو مظهر معين يستدعي وجود ذات عارفة وموضوعا للمعرفة، أي إن الوعي القائم هو إدراك فئة اجتماعية ما لوضعها الراهن، والوعي يكتفي أن يصف دون أن يعمل على التغيير، "فمجموعة التّصورات التي تملكها جماعة ما عن حياتها ونشاطها الاجتماعي سواء في علاقتها مع الطّبيعة [أم] مع الجماعات الأخرى"⁴¹، ومن سمات هذه التّصورات الثّبات والرّسوخ، كما أنّه مرتبط بالزمن الحاضر.

وفيما يخص الوعي الممكن فقد ناقشه غولدمان في كتابه (الفلسفة والعلوم الإنسانية)، وعدّه من اختصاص الفرد الاستثنائي الذي يستطيع أن يعبر عن رؤية العالم، على عكس الوعي القائم الذي تُرك للكتّاب الصغار والمتوسّطين، يوضح غولدمان هذا الطرح في قوله: "إن الوعي الممكن الأقصى لطبقة اجتماعية يشكل دائما رؤية للعالم متماسكة سيكولوجيا وتستطيع أن تعبر عن نفسها على المستوى الديني والفلسفي والأدبي والفني"⁴²؛ فالوعي الممكن مرتبط بزمن المستقبل، "فهو أقصى ما يمكن أن يبلغه وعي الجماعة دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير طبيعتها"⁴³، كما أن هذا القول يوضح العلاقة بين الوعي الممكن ورؤية العالم عند لوسيان غولدمان بشرط أن يظل متماسكا داخليا.

وبهذا نجد أن الوعي الممكن يتجسد في ظل جملة من التّصورات المنسجمة للطبقة، فهو يرتبط بما تسعى إليه الطبقة، وما يحكم نظرتها وسياق وجودها من تزواج يعمل على إنجاب تصور يقوي حبل التّواصل بين أفرادها، كما يرفع درجة التوازن مع متطلبات واقعه، وهو مجسد في الأعمال الفكرية والأدبية، حيث أنّ "الفرد يبدع كونا متخيلا يعبر به عن رؤية فئة اجتماعية تمتلك وعيا تريد أن تكوّنه عن الوضعية التي تطمح إلى الوصول إليها"⁴⁴، ومنه فالوعي لا يستحيل ممكنا إلّا إذا كان فعليا قبل ذلك، فالوعي الممكن يستند على الوعي القائم ليتجاوزه ويكون تصوّرا جديدا مستقبليا.

التّمائل (التناظر):

جاءت البنيوية التكوينية بمفهوم التّمائل من أجل إبراز العلاقة بين العمل الأدبي والبنية الدالة، فالتّمائل يصف العلاقة بين الأعمال الإبداعية والواقع الاجتماعي

التاريخي، حيث إنّ الصلة بين هذين الطرفين قائمة على أساس من التماثل الذي ينشأ عن توافق الفرد مع وعي الجماعة في ظل قانون جدلي، ما يجعل تعريف التماثل يبتعد عن الانعكاس الآلي، الذي ينظر للأدب على أنه انعكاس للواقع الاجتماعي.

أكد لوسيان غولدمان على الطابع الاجتماعي للإبداع، وقدم تبريرات على مشروعية التماثل، مؤكدا حقيقة أن العلاقة بين الحياة الاجتماعية والعمل الإبداعي جوهرية، فهي "لا تتعلق بمضمون هذين القطاعين من الواقع الإنساني بل تتعلق فقط بالبنيات الذهنية [...] وليست هذه البنيات الذهنية ظواهر فردية بل ظواهر اجتماعية، وهي لا تتعلق بالمستوى المفهومي أو بالمضمون أو بالنوايا الشعورية، ولا تتعلق بإيديولوجيا المبدع، بل تتعلق أيضا بما يرى ويحس"⁴⁵؛ ويستنتج مما سبق أن البنيات الذهنية ليست شعورية، ولا بنيات لا شعورية بالمعنى الفرويدي للكلمة، بل هي "بنيات تمثل عمليات غير واعية يمكن مقارنتها في معنى من المعاني بالبنيات العضلية والعصبية التي تحدد السمة الخاصة لحركاتنا وإشاراتنا"⁴⁶.

ومن خلال هذه التبريرات نجد أنّ هناك بنيات ومقولات ذهنية تعكس السلوك الاجتماعي للجماعات وفكرها، ولا يكون فهمها إلّا من خلال التحليل المحايد بعيدا عن الأمور الخارجية المحيطة بالعمل الإبداعي، ومما يستحق الذكر كذلك هو أن التماثل عند غولدمان له مرجعية فلسفية أرسطية وخاصة في مفهوم المحاكاة، الذي يُعدّ الأصل الذي يرجع الفنون إلى نشأتها، حيث يرى غولدمان أن المحاكاة غريزة في الإنسان، وهي لا تعني التّطابق الحرفي بالضرورة مع بنية الإبداع الأدبي والحقائق التاريخية والاجتماعية، كما يرى كذلك أن العمل الأدبي يتناظر مع البنيات الاجتماعية.

الخاتمة

نخلص بعد تتبعنا للبنية التكوينية وتحديدنا مرتكزاتها عند رائد من روادها

لوسيان غولدمان إلى النتائج التالية:

- * - مصطلح البنيوية التكوينية هو الذي شاع استعماله عند النقاد العرب رغم الاختلافات في تسمية هذا المنهج النقدي عندهم.
- * - أعادت البنيوية التكوينية قيمة المبدع حين جمعت بين البعد الاجتماعي للنص الأدبي وبعده اللغوي.
- * - بنى لوسيان غولدمان أسس البنيوية التكوينية على فرضية أن الأدب والفلسفة تعبيران عن (رؤية العالم).
- * - اتكأت البنيوية التكوينية عند لوسيان غولدمان على خمسة معالم رئيسة في مقاربتها للنصوص الأدبية.
- * - رؤية العالم مفهوم إجرائي يتميز بالشمولية والانسجام، ويعني تطلعات أعضاء مجموعة اجتماعية وإحساساتهم وأفكارهم التي تجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى.
- * - يحقق مبدأ الفهم والتفسير التكامل بين داخل النص الإبداعي والواقع الاجتماعي التاريخي، يهتم الفهم بتتبع بنية النص ودراسته دراسة محايدة، بينما يهتم التفسير بوضع هذه البنية ضمن بنية شاملة للمجتمع.
- * - مقولة البنية الدالة من أهم مبادئ لوسيان غولدمان، وهي رؤية دينامية تتابع تشكل البنيات، تجعل العمل الفني موحدًا ومتناسكًا.
- * - الوعي القائم هو إدراك فئة اجتماعية ما لوضعها الراهن، وهو يكتفي بالوصف دون تغيير، في حين يرتبط الوعي الممكن بزمن المستقبل، وبما تسعى إليه الطبقة.
- * - يصف التماثل العلاقة بين الأعمال الإبداعية والواقع الاجتماعي التاريخي.
- الهوامش والإحالات:**

1- جابر عصفور: نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998، ص83.

2- وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث، ص143.

3- صدار نور الدين: مدخل الى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة، عالم الفكر، العدد 01، المجلد 38، 2009، ص62.

- 4- فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط2، 2002، ص37.
- 5- لوسيان غولدمان: البنيوية التكوينية وتاريخ الأدب، تر علي الشرع، مجلة الثقافة الأجنبية، ع2، 1988، ص15
- 6- جورج لوكاتش: إيديولوجية المعاصرة، تر، يعقوب أفزام منصور، مجلة الثقافة الأجنبية، ع2، 1984، ص18.
- 7- عزام محمد: تحليل الخطاب في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص242.
- * الجانسينية: مذهب مسيحي يقوم على الفكر اللاهوتي للهولندي جانسيونس (1585-1638) أسقف إيريس الذي آمن بالجبر، وأنكر الإرادة الحرة للإنسان، للاطلاع أكثر ينظر رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة: تر جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1998، ص67.
- 8- محمد نديم خشفة، تأصيل النص المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1997، ص24.
- 9- لوسيان غولدمان: البنيوية التكوينية وتاريخ الأدب، ص15.
- 10- لوسيان غولدمان: مقدمة إلى مشكلات علم اجتماع الرواية، تر خيرى دومة، مجلة فصول، مج12، ع2، 1993، ص24.
- 11- لوسيان غولدمان: مقدمة إلى مشكلات علم اجتماع الرواية، ص14.
- 12- فؤاد أبو منصور: النقد البنيوي الحديث بين لبنان وأوروبا، دار الجيل، بيروت، ط1، 1978، ص127.
- 13- لوسيان غولدمان وآخرون: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، تر محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1984، ص45.
- 14- نفسه، ص45.
- 15- نعيمة بولكعبيات: البنيوية التكوينية وآليات قراءة النص الأدبي، مجلة منتدى الأستاذ، ع17، 2016، ص161.
- 16- لوسيان غولدمان وآخرون: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص46.

- 17- نفسه، ص47.
- 18- بشير تاويريت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر: ص44.
- 19- مارتن هيندلس: مفهوم النظرة إلى العالم وقيمه في نظرية الأدب، تر عبد السلام بن عبد العالي، مجلة الأفاق، الرباط، ع10، 1982، ص62-63.
- 20- نفسه، ص63.
- 21- بشير تاويريت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر: ص44.
- 22- لوسيان غولدمان: الإله الخفي، تر زبيدة القاضي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2010، ص42.
- 23- نفسه، ص46.
- 24- فوزية لعويوس غازي الجابري: التحليل البنيوي للرواية العربية، ص137.
- 25- لوسيان غولدمان: البنيوية التكوينية، ص23.
- 26- بشير تاويريت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر، ص45.
- 27- نفسه، ص45.
- 28- نفسه، ص45.
- 29- عباس محمد رضا البياتي: عتبات البنيوية التكوينية ونقاط انطلاقها، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم، جامعة بابل، ع25، ص469.
- 30- روجي غارودي: البنيوية (فلسفة موت المؤلف) تر جورش طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، سوريا، ط3، 1985، ص17.
- 31- نفسه، ص130.
- 32- جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص129.
- 33- بشير تاويريت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر، ص48.
- 34- جمال شحيد: في البنيوية التركيبية، ص85.
- 35- جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص122.
- 36- نفسه، ص51.
- 37- جمال شحيد: في البنيوية التركيبية ص81.

- 38- محمد نديم خفشة: تأصيل النص المنهج البنوي لدى لوسيان غولدمان ،
ص25-26.
- 39- لوسيان غولدمان وآخرون: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص46.
- 40- نفسه، ص33.
- 41- حميد لحداني: النقد الروائي والأيديولوجي، المركز الثقافي العربي، بيروت،
لبنان، ط1، 1990، ص69.
- 42- لوسيان غولدمان: العلوم الإنسانية والفلسفة، ترجمة يوسف الأنطاكي، مراجعة
محمد برادة، المجلس الاعلى للثقافة 1996، ص116.
- 43- بحري محمد الأمين: رؤية العالم في ذاكرة الجسد، مخطوط مذكرة ماجستير،
قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2005، ص59.
- 44- لوسيان غولدمان: العلوم الإنسانية والفلسفة ، ص16.
- 45- لوسيان غولدمان: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص45 .
- 46- نفسه، ص45.